مكة المكرمة في عيون الرحالة والجغرافيين المسلمين

مهند نايف الدعجه

قسم الدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل
الأحساء، المملكة العربية السعودية

https://doi.org/10.37575/h/his/1638

الملخص

هدفت الدراسة إلى عرض الرحلة إلى مكة المكرمة وأهميتها وإظهار مدى ثراء الفكر الجغرافي والتاريخي لدى الرحالة خاصة تجاه مكة المكرمة.

وقد ركزت الدراسة في عدة نقاط مهمة، ساهمت في توضيح أهداف البحث وهي: إظهار أهم العوامل التي جعلت مكة في بؤرة الفكر عند الرحالة العرب والمسلمين على وجه الخصوص، ثم إيضاح أهم الطرق التي توصل إلى مكة من الأرجاء المختلفة كالطريق العراقي، والطريق المصري، والطريق اليمني، والطريق الشامي، بالإضافة إلى الطرق الأخرى المائية والبرية الموصلة بين مكة وأرجاء العالم القديم، وكان من المهم لاكتمال الفكرة أن يشار إلى النظرة الجغرافية والتاريخية، والاقتصادية (كالتجارة والصناعة والسلع)، والاجتماعية (كالعادات والتقاليد والزي والأطعمة)، والعلمية (كحلقات العلم والمعرفة)، والفنية المعمارية، من خلال ما جاء عن مكة المكرمة في كتب الرحلات المتنوعة.

ومن أبرز نتائج البحث، أن هذه الدراسة قد عرضت نماذج من كتب الرحالة الذين زاروا مكة، لما وصفوا به من أنهم بمنزلة شهود عيان (وسائل إعلام)، وقدمت الدراسة لمكة وصفًا عينيًّا غاية في الدقة.

الكلمات المفتاحية: ابن بطوطة، ابن جبير، المقدسي.

المقدمة

تعدّ كتب الرحلات من مصادر التاريخ والآثار التي تزودنا بالكثير من المعلومات والأحداث، وتقدم وصفا للأماكن والشخصيّات، وهي انطباعات شخصيّة وواقعيّة عن الجوانب الاجتماعيّة والحضاريّة للمناطق التي تشملها.

فثمة دوافع متعدّدة للرحلات منها ما هو بدافع السفر وأهمّيته، أو بدافع التجارة، ومنها ما هو لطلب العلم واللقاء بالمشايخ، كما أنّ من الرحالة من اتّخذ أدب الرحلة لكتابة سيرة حياته وحياة مشايخه وعصره.

أمّا الدافع الديني فكان من الدوافع المهمة التي دفعت الكثير من المسلمين لتسجيل رحلاتهم إلى الأماكن المقدّسة، وعلى رأسها (مكّة المكرّمة)، فقد كان الحجّ إلى مكّة عاملاً مساعدا لكثير من هؤلاء الحجاج المسلمين ليقوموا بوصف طريقهم إلى الأماكن المقدّسة وكلّ ما شاهدوه.

وكان الحجّ من أعظم بواعث الرحلات، نظرًا إلى أن آلاف المسلمين يتجهون كلّ عام صوب الحجاز والحرمين الشريفين، لتأدية فريضة الحجّ وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وكان بعض الحجّاج يكتبون عن الطرق التي سلكوها والمدن والمنازل التي نزلوا فيها، أو الأحداث التي شاهدوها لكي ينتفع بها الآخرون ويهتدوا.

وتضمّ كتب الرحلات كثيرا من المعلومات والمعارف الجغرافيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة والاقتصاديّة في أزمنة مختلفة، وهي -من هنا- تشكّل مادّة غنيّة للجغرافيين والمؤرخين، وكذلك علماء الاجتماع والاقتصاديّين ودارسي الأدب وغيرهم.

وقد مثلت مكة وتمثل قبلة الإسلام والمسلمين في كافة أنحاء العالم، ومثلت وتمثل الرحلة إليها مقصدًا وركنًا من أركان الإسلام، وتهوي إلى بيت الله الحرام أفئدة المسلمين في كل زمان ومكان، كما كان لانتشار الإسلام الفضل في ازدهار الفكر الجغرافي بصفة عامة وازدهار الرحلة وأدبها بصفة خاصة، خاصة الرحلة إلى مكة، فهي مطلب كل المسلمين.

فقد تولى الإسلام استنفار الحاسة الجغرافية في المسلمين، وهم يواجهون التحدي من قبل كفار الجزيرة العربية وخارجها، أو يجوبون الأرض في أنحاء الدولة الإسلامية، أو ينشرون الدعوة إلى الله على الصعيد العالمي، فيما وراء الأرض الإسلامية، وكان المطلوب من إثارة أو استنفار الحاسة الجغرافية أن يجني المسلمون ثمرات نافعة، من خلال الانفتاح على الأرض وعلى الناس في كل مكان، وكان المطلوب أيضًا أن تظهر الصفوة الممتازة من بين صفوف الرحالة والجغرافيين

المسلمين، وأن تنكب هذه الصفوة على إحياء الفكر الجغرافي.

وقد ركزت الدراسة في عدة نقاط مهمة، ساهمت في توضيح أهداف البحث وهي: إظهار أهم العوامل التي جعلت مكة في بؤرة الفكر عند الرحالة العرب والمسلمين على وجه الخصوص وجملة الرحالين على وجه العموم، ثم إيضاح أهم الطرق التي توصل إلى مكة من الأرجاء المختلفة كالطريق العراقي، والطريق المصري، والطريق اليمني، والطريق الشامي، بالإضافة إلى الطرق الأخرى المائية والبرية، وكان من المهم لاكتمال الفكرة وتحسينها أن يشار إلى الجوانب الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفنية المعمارية لمكة المكرمة في كتب الرحلات المتنوعة، ومنها رحلة ابن جبير كنموذج للرحلة إلى مكة؛ إذ إنه على الرغم من أن ابن جبير قد قصد مكة من بلاد الأندلس، إلا أنه أكثر الرحالة إقامة في مكة، وقد أمعن فيها النظر والملاحظة، بل من أكثر الرحالين كتابة عنها في دقة واضحة.

ولا يقل أثر الرحالة الآخرين عن ابن جبير، ولذلك حاولت في هذه الدراسة أن أقارن بين ما وصفه هؤلاء الرحالة وإن كان في فترات متباعدة أحيانا إلا أنه يعطينا تصورا واضحا عن أبرز الملامح المتنوعة للمدينة، وسكانها، واقتصادها، وتجارتها، ومظاهر العبادة فيها، مع ما وصفته تلك الرحلات من تفنن واضح في إخراج الرسم والتصوير لمختلف الجوانب، وإن كان دافع حبهم الديني قد رسم ملامح مختلف نواحي الحياة التي ربما لا نجد لها وصفا في كتب التاريخ الأخرى.

موقع مكة

تقع مكَّة المكرَّمة في الجانب الغربي من جزيرة العرب، في بطن وادٍ ضيِّق طويل، من أودِيَة جبال السَّراة، غير ذي زرْع، يسمِّيه المكيُّون وادي إبراهيم، وعمرانها وبيوتها منتشرة على امتِداد هذا الوادي على شكل هلالٍ يَميل إلى الاستِطالة -حيث يتَّجِه جانباه نحو سفوح جبل قعيقعان غربًا وجبل أبي قبيس شرقًا ومن محلَّة المعابدة طولاً إلى محلَّة المسفلة جنوبًا- تُحِيط به الجبال والتلال الجرداء والصخور الصلبة من كلِّ جانب؛ لتشكِّل حول مكَّة وكعبتها دائرة، ومن أضخم جبال مكة وأعظمها أبو قبيس، ويقع إلى الجهة الشَّرقيَّة منها، ويطلُّ على المسجد الحرام، ومن جبالها المعروفة قعيقعان، وفاضح، والمحصب، وثور، والحجون، وحراء، وتفاحة، والفلق.

وكانت المناطق المنخفضة نسبيًّا من ساحة مكَّة تسمى البطحاء، وكلُّ ما نزَل عن الحرم المكي يسمُّونه «المسفلة»، وما ارتَفَع عنه يسمُّونه «المعلاة»، ومكَّة تقع عند خط تقاطع درجتي: عرض 21 ْ 25 َ شمالاً، وطول 39 ْ 49 َ شرقًا، وترتَفِع عن سطح البحر بنحو 280 مترًا، هذا يعني أنَّها تقع ضمن سهل تهامة السَّاحلي الذي يمتدُّ على طول ساحل البحر الأحْمر من أقصى شماله عند خليج العقبة إلى نهايته الجنوبيَّة عند باب المندب، أضِف إلى ذلك أنَّها تمثِّل نقطةَ التِقاء بين تهامة وجبال السروات[1].

وقد أسهبت كتب الرحلة في تحديد موقع مكة على وجه التعميم باعتبارها ضمن إقليم العرب أو الحجاز أو على وجه التخصيص بذكر مكة وما يحيط بها من قرى ومدن.

ومما روي في ذلك: «فأما الحجاز فقصبته مكة ومن مدنها: يثرب وينبع وقرح وخيبر والمروة والحوراء وجدة والطائف والجار والسقيا والعونيد والجحفة والعشيرة هذه أمهات، ودونهن: بدر، خليص، أمج، الحجر، بدا يعقوب، السوارقية، الفرع، السيرة، جبلة، مهاج، حاذة»[2]. إذ غلب على الرحالة أن يتحدثوا عن المدينة وكورها وما يتبعها من قرى.

ومن ناحية شكل سطح مكة وتضاريسها فقد وصفت بأنها تقع بين جبال عظام وهي أودية ذات شعاب: «ومكة مدينة فيما بين شعاب وجبال»[3].

ولذلك فهي تقع بين جبال عالية ولا ترى من بعيد[4]، باعتبار أنها منخفض بين تلكم الجبال السالفة الذكر، فهي مدينة في واد والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي محيطة حول الكعبة[5]، وهذه خاصية حباها الله عز وجل لهذه المدينة، والتي تعطي انطباعًا واضحا عن الحصانة فيها.

(1) مقبل، «أول ما خلق الله من الأرض مكة ومنها دحيت الأرض» تاريخ مكة المكرمة عبر العصور، ص 3.
(2) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 36.
(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 35.
(4) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 137.
(5) الحموي، معجم البلدان، 5/ 217.

تسمية مكة

عرفت مكة -وللدَّلالة على شرف مسمَّاها وسموِّ مكانتها- بأسماء كثيرة، فمِن أسمائها التي ورَدتْ في القرآن الكريم: مكة وبكة[1]. وقيل: مكة البلد وبكة موضع البيت. وقيل: بكة البيت والمسجد، ومكة الحرم كله[2]. والبلد والقرية وأم القرى[3].

أما اسم مكة فقد ذكر في كثير من المواضع؛ ومنها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾[4]، وقد اتفق العلماء على اسم مكة لجميع البلدة، وأما تسميتها بالبلد فقد قال تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾[5]، وأما التسمية بالقرية فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾[6]، وأما التسمية بأم القرى لقوله تعالى: ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[7].

ومن أسمائها أيضًا «بكة»، وهناك أقوال في هذه التسمية: القول الأول أنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها. والثاني أنها سميت بهذا الاسم لأن الأقدام تبك بعضها بعضًا[8].

وقد دعا لها إبراهيم عليه السلام، وذُكرت في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾[9]. فاستجاب الله عز وجل وآمن من نزل فيها، ورزق أهلها من الثمرات التي تجلب إليها من الآفاق[10]؛ أي من مختلف المناطق.

ومن أسمائها: مكة، وبكة، والنسّاسة، وأم زحم، وأم القرى، ومعاذ، والحاطمة لأنها تحطم من استخف بها، وسمي البيت «العتيق» لأنه عتق من الجبابرة، و«الرأس» لأنها مثل رأس الإنسان، والحرم وصلاح والبلد الأمين والعرش و«القادس» لأنها تقدس الذنوب أي تطهر، والمقدسة والناسّة و«الباسّة» لأنها تبس أي تحطم الملحدين وقيل تخرجهم، و«كوثى» باسم بقعة كانت منزل بني عبدالدار[11].

وقيل: مكة بيت الله الحرام، أما اشتقاقها ففيه أقوال: «فقيل سميت «مكة» لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم، ويقال سميت «مكة» لازدحام الناس بها من قولهم: قد امتك الفصيل ضرع أمه، إذا مصه مصًّا شديدًا، ويقال «مكة» اسم المدينة، وبكة اسم البيت، وقيل إنما سميت «مكة» لأن العرب في الجاهلية كانت تقول: لا يتم حجنا حتى نأتي مكة الكعبة فنمك فيه؛ أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها -والمكّاء بتشديد الكاف طائر- وقيل سميت «مكة» لأنها بين جبلين مرتفعين عليها وهي في هبطة بمنزلة المكوك، وقيل سميت «مكة» لأنها لا يفجر بها أحد إلا بكت عنقه فكان يصبح وقد التوت عنقه، وقيل «بكة» موضع البيت وما حول البيت: مكة»[12].

و«مكة» مأخوذ من قولهم: تمككت المخ من العظم تمككًا: إذا استخرجته عنه لأنها تمك الفاجر عنها وتخرجه منها. وقيل سميت «بكة» لأن الناس يبك بعضهم بعضًا فيها أي يدفع، واختلف الناس في هذين الاسميين فقال قوم: «هما لغتان والمسمى بهما واحد؛ لأن العرب تبدل الميم بالباء. وقال آخرون: بل هما اسمان والمسمى بهما شيئان، لأن اختلاف الأسماء موضوع لاختلاف المسمى، ومن قال بهذا اختلف في المسمى بهما على قولين:

- أحدهما أن «مكة» اسم البلد كله، و«بكة» اسم البيت، وهذا قول إبراهيم النخعي ويحيى بن أبي أيوب.
- والثاني أن «مكة» الحرم كله، و«بكة» المسجد، وهذا قول الزهري وزيد بن أسلم.

وحكى مصعب بن عبدالله الزبيري قال: كانت مكة في الجاهلية تسمى صلاحًا لأمنها، وقيل إن من أسماء مكة «أم زحم» و«الباسة»، فأما «أم زحم» فلأن الناس يتزاحمون بها ويتنازعون، وأما «الباسة» فلأنها تبس من ألحد فيها؛ أي تحطمه وتهلكه، ويروى «الناسة» بالنون ومعناه أنها تنس

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 14.
(2) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 1/ 93.
ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز «تاريخ المستبصر»، ص11.
(4) سورة الفتح، آية (24).
(5) سورة البلد، آية (1).
(6) سورة النحل، آية (112).
(7) سورة الأنعام، آية (92).
(8) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 20، وابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز «تاريخ المستبصر»، ص 11، 15.
(9) سورة البقرة، آية 126.
(10) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص 21.
(11) الحموي، معجم البلدان، 5/211-212.
(12) الحموي، معجم البلدان، 5/ 210-211.

من ألحد فيها أي تطرده وتنفيه. وأصل مكة وحرمتها ما عظمه الله سبحانه من حرمة بيته، حتى جعلها لأجل البيت الذي أمر برفع قواعده وجعله قبلة عباده أم القرى[1]. فلأهمية وقداسة مكة حباها الله بأسماء كثيرة تمييزًا لها عن باقي المدن.

مناخ مكة

إن موقع مكة السالف قد فرض عليها مناخًا أشد حرارة من الإقليم الصحراوي، نظرًا لانخفاضها من جهة، ولإحاطتها بالجبال من جهة أخرى، ولذلك قيل في مناخها: «وجو مكة حار جدا في الصيف إلا أن ليلها طيب، قد رفع الله عنهم مؤونة الدفء وأراحهم من كلف الاصطلاء»[2].

ولذلك أشار بعض الرحالة إلى أن أهل مكة كانوا يبحثون عن حلول لتفادي ارتفاع درجة الحرارة، فإذا تأذى أهل مكة بالحر خرجوا إلى الطائف[3]؛ لأنها أكثر ارتفاعًا وبالتالي أقل حرارة. ولذلك قيل: «كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف أثناء رحلة الشتاء والصيف»[4].

في حين وصفها ابن جبير بغرابة منه بطيب هوائها، وفتور حمارة قيظها المعهود فيها، وانكسار حدة سمومها، ويقول: «كنا نبيت في سطح الموضع الذي كنا نسكنه، فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه إلى دثار يقينا منه»[5]. ويؤكد اعتدال مناخها ليلا ما قيل: «والليل بمكة في الصيف طيب»[6]. إلا أن الأمطار بمكة المكرمة لا تزال شحيحة، ولا تسقط إلا على فترات متباعدة، وهذه من أهم أسباب الجفاف والجدب والقحط الذي يصيبها.

الطرق

مثلت مكة ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة[7]. وأما المسافات فمن الكوفة إلى مكة سبع وعشرون مرحلة، وكذلك من البصرة إليها ونقصان يومين، ومن دمشق إلى مكة شهر، ومن عدن إلى مكة شهر، وله طريقان أحدهما ساحل البحر وهو الأبعد والآخر يأخذ على طريق صنعاء وصعدة ونجران والطائف حتى ينتهي إلى مكة، ولها طريق آخر على البوادي وتهامة وهو أقرب من الطريقين المذكورين أولا على أنها أحياء العرب في بواديها ومخالفها ولا يسلكها إلا الخواص منهم، وأما أهل حضرموت ومهرة فإنهم يقطعون عرض بلادهم حتى يتصلوا بالجادة التي بين عدن ومكة، والمسافة بينهم إلى الأمصار بهذه الجادة بنحو الشهر إلى الخمسين يوما، وأما طريق عُمان إلى مكة فهو مثل طريق دمشق صعب السلوك من البوادي والبراري القفر القليلة السكان وإنما طريقهم في البحر إلى جدة فإن سلكوا على السواحل من مهرة وحضرموت إلى عدن بعد عليهم وقلّ ما يسلكونه، وكذلك ما بين عُمان والبحرين فطريق شاق يصعب سلوكه لتمانع العرب فيما بينهم فيه[8].

وهذا الطريق هو الذي عليه الأميال وهو طريق العوامل والعمال وإن رحل من يريد مكة إلى بئر الحذا منزل ليس فيه إلاّ بئرٌ واحدة، ومن بئر الحذا إلى قرية عظيمة عامرة، وهي التي يُحرم منها أهل اليمن، وماؤها وادٍ جرّار، وهي قرشية تسمى قَرن[9].

فأما من البصرة إلى مكة فمن البصرة إلى الحفير، ثم إلى ماويّة ثم إلى ذات العشر، ثم إلى الينسوعة، ثم إلى السمينة، ثم إلى النباج، ثم إلى العوسجة، ثم إلى القريتين، ثم إلى رامة، ومن النباج طريق إلى النقرة، ومن رامة إلى أمرة، ثم إلى ضرية، ثم إلى جديلة، ثم إلى فلجة، ثم إلى الدفينة، ثم إلى قبا، ثم إلى مران، ثم إلى وجرة، ثم إلى أوطاس، ثم إلى ذات عرق، ثم إلى بستان ابن عامر، ثم إلى مكة[10].

فأما من مصر إلى مكة، فمنازلها على التوالي على ما نصفه: الفسطاط، الجب، البويب، بيدمة منزل ابن مرو، عجرود، الرُّبَيبة، الكرسي، الحصن، منزل إيلة شرف البعل، مدين، الأغراء، منزل الكلاّبة، شغب، بدا، السرحتين، البيضاء، وادي القرى، الرحيبة، ذو المروة، السويداء، خشب، المدينة. فأما من أخذ على طريق الساحل فإذا صار إلى شرف

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 95.
(2) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 141، والمقدسي، أحسن التقاسيم، ص 37، والحموي، معجم البلدان، 5/ 217.
(3) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 40.
(4) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 47.
(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير المسمّاة «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك»، ص 100.
(6) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 47.
(7) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 97.
(8) الحموي، معجم البلدان، 5/ 217.
(9) الحموي، معجم البلدان، 5/ 217.
(10) الحموي، معجم البلدان، 5/ 217.

البعل صار إلى الصلا، ثم إلى النبك، ثم إلى ظُبة، ثم إلى عونيد، ثم إلى الوجه، ثم إلى منحوس، ثم إلى الجرة، ثم إلى ينبع، ثم إلى مسؤولان، ثم إلى الجار، ومن الجار إلى المدينة مسيرة يومين[1].

فأما من دمشق إلى مكة، فالمنازل منها إلى ذات المنازل، ثم سرغ، ثم تبوك، ثم المحدثة، ثم الأقرع، ثم الجنينة، ثم الحجر، ثم وادي القرى، ثم المدينة.

وأما الطريق من اليمامة إلى مكة فمنها إلى العرض، وإلى حديقة، وإلى السيح، وإلى الثنيّة العقّاء، وإلى سَقيراء، وإلى السّد، وإلى مرارة، وإلى سويقة، وإلى القريتين من طريق البصرة.

وأما من صنعاء إلى مكة على المنازل فمنها إلى الرحابة، ثم إلى قرية رافدة، ثم إلى خيوان، ثم إلى صعدة، ثم إلى النضح، ثم القصبة، ثم الثجة، ثم كثبة، ثم بنات حرم، ثم جسداء، ثم بيشة، ثم تبالة، ثم رنية، ثم الزعراء، ثم صفر، ثم الفتق، ثم بستان ابن عامر ثم مكة.

وأما من مخلاف خولان إلى مكة، فمنه إلى ذي سحيم، ثم العرش، ثم بيشة، ثم ضنكان، ثم حلى، ثم يبة، ثم ابن جاوان، ثم عليب، ثم الليث، ثم منزل، ثم يلملم، ثم ملكان، ثم مكة.

وأما من عمان إلى مكة فعلى طريق الساحل المنازل فرق عوكلان، ساحل مناه، بلاد الشحر، مخاليف كندة، مخاليف عبدالله بن مذحج، مخلاف لحج، أبين، عدن، مغاص اللؤلؤ، مخلاف بني مجيد، المنجلة، مخلاف الركب، المندب، مخلاف رمع، زبيد، مخلاف عك، الحردة، مخلاف الحكم، عثر. فمن أراد طريق الجادة أخذ من عثر إلى العرش، ثم جاز على طريق الجادة المخاليف. ومن أراد الساحل أخذ من عثر إلى مرسى ضنكان، ثم مرسى حلى، ثم السرّين، ثم أغيار، ثم الهرجاب، ثم الشعيبة، ثم منزل، ثم جدة، ثم مكة[2].

الغطاء النباتي

أثرت طبيعة المناخ، وبشكل واضح، على ندرة الغطاء النباتي واقتصار ذلك على الشجر الصحراوي، فقد وصف ناصر خسرو بقوله: «وليس بمكة شجر أبدًا إلا عند الباب الغربي للمسجد الحرام المسمى باب إبراهيم؛ حيث يوجد كثير من الشجر الكبير الذي يرتفع على حافة بئر»[3]. وتم تحديد نوع ذلك الشجر بقول ابن حوقل «وليس بجميع مكة شجر مثمر غير شجر البادية»[4]، وهذا لارتباط المناخ بنوعية التربة الملائمة للنبات الصحراوي فقط، وهي من الإشارات التي أوردتها بعض كتب الرحالة.

الطيور والحمام

ومن الأشياء الملفتة للنظر ما وصفته كتب الرحلات عن بعض أشكال الطيور وتفسيرهم لوجودها؛ فحمام الحرم كثير لا يحصى فترى الحمام يتجلى على الحرم كله، فإذا قربت من البيت عرجت عنه يمينا أو شمالاً، والطيور سواها كذلك، وقيل إنه لا ينزل عليه طائر إلا عند مرض يصيبه، فإما أن يموت لحينه أو يبرأ[5]. فسبحان الله على هذه النعمة العظيمة.

كما لم تخل بعض كتب الرحلة من الحديث عن استئناس الحيوانات الأخرى، سواء للنقل أو التجارة أو البيع فذكر منها على سبيل المثال: دواب وجمال[6]. ومن الطبيعي أيضًا وفرة حيوانات أخرى كالأغنام مثلاً، وإن الرحالة لم يحصوا كل الحيوانات الأخرى.

المياه والآبار والعيون بمكة

عانت مكة على مر العصور من ندرة مياهها، باستثناء ماء زمزم الذي لا ينقطع، ولذلك وردت إشارات كثيرة عن هذه المعاناة، ومن ذلك، ما قيل: «وليس بمكة ماء جارٍ إلا شيء أجري إليها من عين، وكانت أكثر مياههم من السماء»[7]. «ومياهها من السماء، وليس لهم آبار يشربون منها، وأطيبها زمزم ولا يمكن الإدمان على شربها»[8]. «ومياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب وأطيبها ماء بئر زمزم وماؤه شروب غير أنه لا يمكن إدمان شربه»[9]. «وشرب أهل مكة من آبار ملحة»[10].

(1) الحموي، معجم البلدان، 5/ 217.
(2) ابن خرداذبه، المسالك والممالك يليه كتاب الخراج وصناعة الكتابة، ص 49.
(3) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 137
(4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 37، والإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 43.
(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 76.
(6) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 43.
(7) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 37.
(8) الحموي، معجم البلدان، 5/ 217.
(9) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 43.
(10) اليعقوبي، البلدان، ص 101.

ولتفادي مشكلة المياه وملوحتها أو ندرتها، كان من الإصلاحات المائية ما روي أثناء زيارة إحدى الأميرات إلى الحج فقيل: «ومن القنوات التي حفرتها أم جعفر بنت جعفر ابن أمير المؤمنين المنصور في خلافة الرشيد أمير المؤمنين، وأجرتها من الموضع الذي يقال له المشاش في قنوات رصاص، فشرب أهل مكة والحاج من بركة أم جعفر»[1].

وقد أشار المقدسي في رحلته إلى ذلك، وفي حدود ما ذكر في إقليم بلاد العرب، بقوله: إنها مصر هذا الإقليم، وذكر أن بمكة ثلاث برك، تُملأ من قناة شقتها زبيدة[2]، وذكر أن بمنى آبار ومصانع[3]، وقياسر وحوانيت[4]، وفي مزدلفة مصلى وسقاية وبرك عدة[5]. وذكر الإصطخري: «أن البرك والعيون والسواري[6] كثيرة جدًّا في ديار العرب»[7]. وهذا يشمل ضمنًا مكة وما حولها. وبمكة ثلاث برك تملأ من قناة شقتها زبيدة من بستان بني عامر[8].

وقد جاء ذلك في سنة 193هـ عندما حجت زبيدة، زوج الخليفة هارون الرشيد، وشعرت بما يعانيه الحجاج من قلة وندرة المياه، فحاولت إيجاد وسيلة دائمة لإمداد الحجاج بالماء، فرصدت من مالها مبالغ لهذا الأمر، وأرسلت المهندسين إلى الجبال التي بين الطائف وعرفات، فكشفوا ينبوعًا بالقرب من حنين، وحُفر وجعلوه مركزًا ومنبعًا للنهر، والذي كانت تتغذى منه جميع الينابيع، واستمر يمد الحرم بالماء أكثر من 1150 سنة، وفي الحقيقة أنه لم يقم أحد في مكة بعملٍ يضارع هذا العمل[9].

(1) اليعقوبي، البلدان، ص 101.
(2) زبيدة: هي أم جعفر، وتزوجها الخليفة الرشيد، فأنجبت له محمد (الأمين). انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، 3/ 312.
(3) المصانع: محابس تتخذ للماء، ومفردها مصنع. الحموي، معجم البلدان، 5/ 159.
(4) حوانيت: مفردها حانوت، ويُقصد بها الدكاكين. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص 150.
(5) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرف الأقاليم، ص 33، 35، 36.
(6) السواري: مفردها سارية، وهي السحابة الليلية الممطرة. أبو حاقه، معجم النفائس الوسيط، ص 556.
(7) الإصطخري، مسالك الممالك، ص 14، 15.
(8) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 38.
(9) مهر، يوميات رحلة في الحجاز، ص 86.

وقد أشار اليعقوبي، عن عمل زبيدة هذا، وأشاد به وأظهر إعجابه بعملها هذا حيث قال: «شرب أهل مكة من آبار مالحة، ومن القنوات التي شقتها زبيدة، ولقد أجرتها من موضع يقال له المشاش، فشرب أهل مكة والحاج من بركة أم جعفر»، فهذه دلالة عظمى على فائدة هذه البئر التي أجرتها هذه المرأة الصالحة[10].

وأشار إلى العين التي قام الأمير العدني بحفرها، والتي لم يصل لمكة منها إلا الجزء اليسير، فبنوا حولها أحواضًا تتجمع فيها المياه، وينقلها السقاؤون إلى مكة ويقومون ببيعها. كما أشار اليعقوبي أيضًا لوفرة العيون في مكة دون أن يحدد موضعها[11].

وتحدث المقدسي عن اختلاط وامتزاج المياه، وأثر ذلك على الصحة الجسدية وبين أسباب التيقن من صلاحية المياه، من خلال معرفة أنواعها التي تبين صلاحيتها من عدمها؛ فقال واصفًا مياه إقليم العرب: «ومياه هذا الإقليم مختلفة، ماء عدن وقناة مكة، وماء زبيد ويثرب خفيف، وماء غلافقة قاتل، وماء قرح وينبع رديء، وسائر المياه متقاربة، وأكثر مياه السواحل عذيبيات. فإن قال قائل: ومن أين علمت خفة المياه وثقلها؟ قيل له بأربعة أشياء؛ إحداهن: أن كل ماء يبرد سريعًا فهو خفيف، وما رأيت أسرع برودة من ماء تيماء وأريحا، وهما أخف مياه الإسلام، فمن هذا استنبطت هذا الوجه، ثم صح لي بكثرة التجارب. والثانية أن الماء الخفيف يبطؤ تحليه، ومن شرب ماءً ثقيلاً أسرع بوله. والثالثة الماء الخفيف يشهي الطعام ويهضمه، والرابعة إذا أردت أن تعرف ماء بلد فاذهب إلى البزازين والعطارين، فتصفح وجوههم فإن رأيت فيها الماء؛ فاعلم خفته على قدر ما ترى من نضارتهم، وأن رأيتها كوجوه الموتى ورأيتهم مطمئني الرؤوس فعجل الخروج منه»[12].

وعلى ذلك يمكن تصنيف مياه مكة بالخفة، فهي تبرد بسرعة، وهذه الخفة تبطئ التبول، وهي من الأشياء الضرورية للحاج أو المعتمر، كما أنه يفتح الشهية للطعام، ويساعد في عملية تنشيط الجهاز الهضمي، وعلى ذلك فإن أهل مكة وصفوا

(10) اليعقوبي، البلدان، ص 63.
(11) اليعقوبي، البلدان، ص 103.
(12) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 51.

بالنضارة في أشكالهم.

وذكر ناصر خسرو: «أن المياه بمكة المكرمة شديدة الملوحة، ظاهرة المرارة، حتى لا يمكن استساغتها، ولكن يوجد بمكة كثير من المصانع، والأحواض العظيمة، والتي بلغت تكاليف إنشاء بعضها عشرة آلاف دينار، وتملأ هذه الأحواض من السنين الخصب التي تجود بها السماء من الماء». وذكر أيضًا أن أحد أمراء عدن واسمه (ابن شاه دل)، كشف عن عين ماء غزيرة تحت الأرض، فأمر بإجراء مائها لمكة، ولقد أنفق أموالاً طائلة لإجراء هذه العين، ويقول إنه: «رأى خارج مكة بئرًا يقال لها (بئر الزاهر)، وبجانبها بئر عذبة، يستقون منها الساقون ويجلب من مائها إلى مكة»[1].

وذكر ابن جبير أن بمكة آبارًا عذبة على طريق التنعيم تسمى الشبيكة[2]، وذكر أن عندها خدمًا يملؤون أواني الشرب، وأن قعرها بعيد جدًّا، وأن بئر ذي طوى يتصل بالزاهر[3]. وبها بعض الآبار التي تسقى منها النخل والمزارع[4]، تجرها النواضح[5]، كما أنه من المعروف أن مكة واد غير ذي زرع، فعلى ما وصلت إليه الدولة الإسلامية من تطور، ودانت لهم البلدان المختلفة، لم يمدوا مكة بالماء[6]. ربما لما تحويه من ماء زمزم عصب الحياة. ففي عهد بني أمية تم حفر عدد من الأنهار، التي جرت من الينابيع القريبة من مكة المكرمة، فقد ذكر الأزرقي: أن من عيون معاوية بن أبي سفيان عشرة عيون بمكة[7]، وبعد سقوط الدولة الأموية، خربت بعض هذه الأنهار، وأصبحت دون فائدة، وقاسى الحجاج جدًّا من قلة المياه، وحاول العباسيون إصلاح تلك العيون والآبار، فلم تتكلل جهودهم بالنجاح[8] بشكل وافٍ. فليس بمكة ماء جار، إلا شيء أجري إليها من عين قد كان عمل فيها بعض الولاة، فاستتم في أيام المقتدر العباسي، ويصل إلى مسيل قد جعل له إلى باب بني شيبة في قناة قد عملت هناك، وكان أكثر مياههم من السماء إلى برك كانت بها عامرة، فخربت باستيلاء المتولين على أموال أوقافها واستئثارهم بها، وليست لهم آبار يُشرب منها، وأطيبها زمزم ولا يمكن الإدمان على شرب مائها[9].

ولذلك ومما لا شك فيه أن سكان مكة كانوا يعتمدون على المناطق المجاورة في جلب المياه، ونستدل على ذلك مما قيل: «وإذا جزت الحرم فهناك عيون وآبار وحوائط كثيرة، وأودية ذات خضر ومزارع ونخيل»[10].

وصف مكة

لقد تغنى الرحالة في وصف مكة، مظهرين عظم المكان وقداسته، مقدمين شهادة عيان لما رأوا وما عاينوا بصورة مستساغة للقارئ، حتى ليكاد القارئ يعيش ذلك الوصف؛ وكأنه أمام الحرم مباشرة وسأعرض نماذج من وصف الرحالة.

فيصفها الإدريسي قائلاً: «ومدينة مكة قديمة أزلية البناء، مشهورة الثناء، معمورة مقصودة من جميع الأرض الإسلامية، وإليها حجهم المعروف، وهي مدينة بين شعاب الجبال، وطولها من المعلاة إلى المسفلة نحو ميلين، وهو من حد الجنوب إلى جهة الشمال، ومن أسفل جبل أجياد إلى ظهر جبل قعيقعان ميل، والمدينة مبنية في وسط هذا الفضاء، وبنيانها حجارة وطين، وحجارة بنيانها من جبالها، وأسواقها قليلة، وفي وسط مكة مسجدها الجامع المسمى بالحرم، وليس لهذا الجامع سقف، وإنما هو دائر كالحظيرة، والكعبة وهو البيت المسقف في وسط الحرم، وطول هذا البيت من خارجه من ناحية الشرق أربعة وعشرون ذراعًا، وكذلك طول الشقة التي تقابلها في جهة الغرب، وبشرقي هذا الوجه باب الكعبة، وارتفاعه عن الأرض نحو قامة، وسطح الكعبة من الداخل مساو لأسفل الباب، وفي ركنه الحجر الأسود، وطول

(1) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 140، 151.
(2) الشبيكة: بين مكة والطائف، على طريق التنعيم. معجم البلدان، ص 367. وابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 88.
(3) بئر ذي طوى: بئر حفرها عبد شمس بن مناف، موقعها دار ابن يوسف بالبطحاء. الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، 2/ 840.
وبئر الزاهر: على طريق التنعيم، نحو ميلين من مكة. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسمّاة «تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، ص 144.
(4) اليعقوبي، البلدان، ص 98.
(5) النواضح: الإبل التي تقوم على سحب الماء. اليعقوبي، البلدان، ص 98.
(6) مهر، يوميات رحلة في الحجاز، ص 85.
(7) الأزرقي، أخبار مكة، 2/ 153.
(8) مهر، يوميات رحلة في الحجاز، ص 86.
(9) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 37.
(10) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 37.

الحائط الثاني الذي من جهة الشمال وهو الشامي ثلاثة وعشرون ذراعًا، وكذلك الشقة الأخرى التي تقابلها في جهة اليمن، ومع أصل هذه الشقة موضع محجوز في دائر وطوله خمسون ذراعًا، وفيه حجر أبيض؛ يقال إنه قبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وفي الجهة الشرقية من الحرم قبة العباس وبئر زمزم وقبة اليهودية، وما استدار بالكعبة كله حطيم؛ يوقد فيه بالليل مصابيح ومشاعل، وللكعبة سقفان؛ وماء السقف الأعلى يخرج عنه إلى خارج البيت في ميزاب من خشب، وذلك الماء يقع على الحجر الذي قلنا إنه قبر إسماعيل، والبيت كله من خارج على استدارته مكسو بثياب الحرير العراقية، لا يظهر منه شيء، وارتفاع سمك البيت المذكور سبعة وعشرون ذراعًا، وهذه الكسوة معلقة فيه بأزرار وعرى، وصاحب بغداد الخليفة يرسل في كل سنة إليها، فتكسى بها وتزال الأخرى عنها، ولا يقدر أحد يكسوها غيره، وفيما يذكر أهل الخبر أن الكعبة كانت خيمة آدم عليه السلام، وكانت مبنية بالطين والحجارة، فهدمها الطوفان وبقيت مهدمة إلى مدة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فيقال إن الله أمرهما ببنيانها، فنهض إبراهيم -عليه السلام- إلى ابنه إسماعيل وتعاونا في بنيانها بالحجر والطين، وليس بمكة ماء جار إلا شيء أجري إليها من عين على بعد من البلد، ولم يستتم فلما كانت أيام المقتدر من بني العباس استتم بناؤه»[1].

وقيل في وصفها: «ومكة فيها أم القرى وبلد العرب وأوطانهم التي لم يشركهم في سكانها غيرهم»[2]. ووصفها المقدسي فقال: «هي مصر هذا الإقليم، قد خطت حول الكعبة في شعب وادٍ، رأيت لها ثلاثة نظائر عمان بالشام، وإصطخر بفارس، وقرية الحمراء بخراسان، بناؤها حجارة سود ملس وبيض أيضًا، وعلوها الآجر، كثيرة الأجنحة من خشب الساج، وهي طبقات مبيضة نظيفة»[3].

وقيل: «مكة شرفها الله، كلها مشهد كريم، كفاها شرفًا ما خصها به من مثابة بيته العظيم، وما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم، وأنها حرم الله وأمنه، وكفاها أنها منشأ النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي آثره الله بالتشريف والتكريم، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم، فهي مبدأ نزول الوحي والتنزيل، وأول مهبط الروح الأمين جبريل، وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الأكرمين»[4].

ووصفها ابن جبير فقال: «ودخلنا مكة -حرسها الله- والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنا قناعه، والأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان، والألسنة تضج بالدعاء وتبتهل إلى الله بالثناء، فتارة تشدو بالتلبية، وآونة تتضرع بالأدعية، فيا لها من ليلة كانت في الحسن بيضة العقر (لا مثيل لها) فهي عروس ليالي العمر، وبكر بنيات الدهر.. فألفينا الكعبة الحرام عروسًا مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن»[5].

وقيل: «وهي بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها، وهي بطن وادٍ مقدس كبيرة مستطيلة، تسع من الخلائق ما لا يحصيه إلا الله عز وجل»[6].

أبواب الحرم المكي

وللحرم المكي تسعة عشر بابًا: «باب بني شيبة، باب النبي، باب بني هاشم، باب الزياتين، باب البزازين، باب الدقاقين، باب بني مخزوم، باب الصفا، باب زقاق الشطوي، باب التمارين، باب دار الوزير، باب جياد، باب الحزورة، باب إبراهيم، باب بني سهم، باب بني جمح، باب العجلة، باب الندوة، باب البشارة»[7].

العمارة والزخرفة

لقد أسهب الرحالة في وصف فن العمارة والبناء والزخرفة والكسوة ومقاييس ذلك بدقة متناهية[8]، ومن ذلك ما وصفه ناصر خسرو وشاهده؛ حيث بين أن هناك نوعين من الملكية العقارية؛ فمنها خاص للدولة، وآخر خاص بالأفراد قائلا: «وقد

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 43.
(2) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 27.
(3) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 37.
(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 91.
(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 58.
(6) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 87.
(7) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 37، وابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 58.
(8) سأعرض هنا نماذج بسيطة عن فن العمارة والبناء في مكة مما ورد في كتب الرحلات إذ إنني أجد في الحديث عن فن العمارة والبناء والزخرفة الشيء الكثير والذي يحتاج إلى بحث مستقل.

بنى (بمكة) خلفاء بغداد عمارات كثيرة وأبنية جميلة، وقد كان بعضها وأنا هناك خربا، والبعض الآخر اشتراه الناس، «أصبح ملكا خاصا»[1].

وربما تجاوزت تلك الخصوصية أهل مكة ليصبح لكل حجاج دولة مكان خاص بهم، وهذا ما ورد عند ابن حوقل عندما تحدث عن العمارة فذكر: «أن بمنى أبنية كثيرة كالقصور، لأهل كل بلد من بلدان الإسلام»[2]. كما تحدث الرحالة بعناية تامة عن فن البناء والزخرفة والمقاييس المستخدمة في البناء، وتكفي الإشارة هنا إلى إعجابهم بالمعادن المستخدمة في البناء، فقد وصف باب الكعبة أنه من فضة مذهبة مستحسنة[3].

ووصف سقف البيت بأنه مجلل بكساء من الحرير الملون[4]، وظاهر الكعبة مكسو بستور من الحرير الأخضر، وسداها قطن، وفي أعلاها رسم بالحرير الأحمر[5]، ولها مضاوئ للإنارة[6].

ووصف المقدسي فن عمارة الحرم المكي بشكل دقيق ومفصل: «وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة، وما ارتفع عنه المعلاة، وعرضها سعة الوادي، والمسجد في ثلثي البلد إلى المسفلة، والكعبة في وسطه، وفيه طول باب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة، عليه مصراعان ملبسان بصفائح الفضة قد طليت بالذهب قبال المشرق، طول المسجد ثلاثمائة ذراع وسبعون ذراعًا، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعًا، وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعًا وشبر في ثلاثة وعشرين ذراعًا وشبر، وذرع دور الحجر خمسة وعشرون ذراعًا، وذرع الطواف مائة ذراع وسبعة أذرع، وسمكها في السماء سبعة وعشرون ذراعًا، والحجر من قبل الشام فيه يقلب الميزاب قد ألبست حيطانه بالرخام مع أرضه، ارتفاعها حقو ويسمونه الحطيم، والطواف من ورائه ولا يجوز الصلاة إليه. فإن قال قائل: إذا لم يجز الطواف إلا عليه فأجز الصلاة إليه، قيل له هذا كلام غير فهيم لأنه مشكوك فيه فوجب أن يحتاط فيه من الوجهين. والحجر الأسود على الركن الشرقي عند الباب على لسان الزاوية مثل رأس الإنسان، ينحني إليه من قبله يسيرًا. وقبة زمزم تقابل الباب والطواف بينهما، ومن ورائها قبة الشراب، فيها حوض كان يسقى فيه السويق والسكر في القديم. والمقام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب وهو أقرب إلى البيت من زمزم، يدخل في الطواف أيام الموسم ويكب عليه صندوق حديد عظيم راسخ في الأرض، طوله أكثر من قامة، وله كسوة ويرفع المقام في كل موسم إلى البيت، فإذا رد جعل عليه صندوق خشب له باب يفتح أوقات الصلاة، فإذا سلم الإمام استلمه ثم أغلق الباب. وقد فرش الطواف بالرمل، والمسجد بالحصى، وأدير على صحنه أروقة ثلاثة على أعمدة رخام، حملها المهدي من الإسكندرية في البحر إلى جدة، والمسجد من بنائه. قد ألبست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء حمل إليها صناع الشام ومصر»[7].

الفنادق والنزل

أشار ابن جبير إلى إقامته بدار تعرف بالنسبة إلى الحلال قريبًا من الحرم، ومن باب السدة أحد أبوبته في حجرة كثيرة المرافق السكنية، مشرفة على الحرم وعلى الكعبة المقدسة[8].

وبإزاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها أبواب يخرج منها إليه؛ كدار زبيدة ودار القاضي ودار العجلة، وحول الحرم أيضًا ديار كثيرة تطيف به، لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم فيبيت أهلها فيه، ويبردون ماءهم في أعالي شرفاته، فهم من النظر إلى البيت العتيق دائما في عبادة متصلة[9]. وهناك دار الزاهر الذي يحتوي على دار وبساتين، وبه مطاهر وسقاية للمعتمرين، وعلى جانبه دكان مستطيل فيه أباريق المياه ومراكن مملؤة للوضوء[10]. ومن مشاهد مكة قبة الوحي؛ وهي دار خديجة أم المؤمنين، ودار الخيزران ودار أبي بكر الصديق[11].

كما يذكر ابن جبير أن هناك رجلا صالحا يدعى جمال الدين وزير صاحب الموصل، كان قد اهتم بعمارة مكة، واستنبط المياه، واختط المنازل، وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وجميع المسافرين،

(1) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 140.
(2) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 36.
(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 60.
(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 60.
(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 60.
(6) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 61.
(7) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 37.
(8) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 58.
(9) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 81.
(10) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 89.
(11) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 93.

وابتنى في المدن المتصلة من العراق إلى الشام فنادق عينها لنزول الفقراء وأبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية ما عليه، وأجرى على قومة الفنادق والمنازل ما يقوم بعيشتهم[1].

الأنشطة التجارية في مكة

كانت مكة المكرمة منطقة جدب وقحط، شديدة الحرارة، ولذلك فهي تعتبر منطقة طرد سكاني، ولكن الله جل جلاله امتن على أهلها بعد دعوة إبراهيم عليه السلام، فكان الحجاج يأتونها من جميع الأقطار، وكذلك الرحالة بعضهم يقصدها للحج، ويُدون ما يعرفه وما يشاهده فيها، من مشرق الأرض ومغربها، وبقاء بعض هؤلاء الرحالة والقاصدين لمكة لأشهر بل لسنوات، يجعلهم يتخذون أحيانًا أعمالا حرفية ويدوية، وهذا يعد من العوامل المساعدة على ازدهار الاقتصاد بمكة المكرمة لما يحملونه من خبرات ومعارف من أقاليم أخرى متنوعة.

ومن جانب آخر ذكر القرآن الكريم رحلة الشتاء والصيف التي كانت تقوم بها قريش، والتي تدرس الآن في جامعات أوروبا تحت مسمى التاريخ الاقتصادي.

فيتضح أن مكة المكرمة، مدينة تجارية من الدرجة الأولى، لأنها على طريق الشمال والجنوب، وطريق تبادل السلع التي تأتي إليها من جميع الأقطار، وفي موسم الحج تحديدًا[2]. فتجارة مكة المكرمة، في كل ما تنتجه الجزيرة العربية -إذا صح القول- يعود إلى الموقع الجغرافي الذي كانت مكة المكرمة تنعم به، والمكانة التي كانت تشهدها مكة المكرمة في نفوس الأمة الإسلامية فهي ذات طابع جذب من الدرجة الأولى من جانب، ومن جانب آخر فهي مجمع للأمة، تقام فيها شعائر الإسلام، ويجتمعون فيها في المواسم ويتبادلون السلع بالبيع والشراء.

ولما كانت مكة المكرمة بلدًا غير ذي زرع، فقد اعتمدت على التجارة الخارجية، وما يجلب إليها من الخارج، وقد كانت مكة المكرمة، قبل القرن السادس الهجري، تعتمد على التجارة الداخلية؛ حيث كانت التجارة الخارجية في يد اليمن[3]. وبعد القرن السادس الهجري مارسوا التجارة الخارجية، فارتفع بذلك أفقهم الاقتصادي بسبب اتصالهم بالأمم والشعوب من حولهم، فقد عرفوا عن النبط وأهل الحيرة الكتابة، وعرفوا عن الأحباش بعض الأدوية، وعلاقاتهم مع مصر أيضًا قديمة جدًّا؛ حيث ذكر أنهم نقلوا لها حاصلات الجنوب من المر والبخور الذي كان لازمًا لمعابدها، وذكر أيضًا أنهم وصلوا إلى مصر وشاهدوا أنهارها وأهراماتها.

فيتضح أن أهل مكة كانوا يستوردون ويصدرون البضائع، كما كانت لهم علاقات جيدة مع الشعوب المجاورة وغير المجاورة؛ ففي المواسم يجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها الشيء الكثير، فضلاً عما يجنى من الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب والمسك والكافور والعنبر والعود، والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك مما يجلب من الهند والحبشة، والأمتعة العراقية واليمانية، والسلع والبضائع المغربية، كل هذا في ثمانية أيام بعد الموسم فلا يوجد على الأرض كلها سلعة من السلع إلا توجد فيها مما يفد مع قوافل الحجاج[4]. كما يكثر في هذه الأسواق التحف، والأدوات النحاسية والفضية والذهبية، ويكثر فيها السجاد والهدايا الكثيرة والمتنوعة التي يحرص الحاج على اقتنائها، وهي تضم في وقتها الكثير من المنتجات من جميع البلدان، من مصر والشام وتركيا وإيران وباكستان وأفغانستان والهند والصين أيضًا، ويحرص الحجاج أيضًا على جلب التمر، ومياه زمزم المباركة لبلدانهم[5].

أسواق مكة

كان للعرب منذ ما قبل الإسلام أسواق عامة يجتمعون فيها للبيع والشراء وتبادل المنافع، وكان أهمها وأقربها إلى مكة سوق عكاظ[6].

وتعددت مناطق الجذب الاقتصادي لأسواق مكة فباب البشارة في الحرم كانت إليه الأسواق من المشرق والجنوب، ودور المصريين ومنازلهم من جهة الغرب، ويقع السعي بين الصفا والمروة

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 102.
(2) الحليسي، رحلة الشتاء والصيف «قريش ومنهجها التجاري والاقتصادي»، ص 130.
(3) الحليسي، رحلة الشتاء والصيف، ص 130.
(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 97.
(5) حلاق، مكة المكرمة، ص 12.
(6) عوض الله، مكة في عصر ما قبل الإسلام، ص 182.

في السوق الشرقي، والعدو من قرنة المسجد إلى باب بني هاشم وثم أميال خضر، وخلف هذين السوقين آخران إلى آخر المعلاة بينهما منافذ. فمن دخل من العراق وأراد باب بني شيبة فليتيامن، وليسلك سوق رأس الردم ولا يسلك سوق الليل. ومن أراده من المصريين فإذا بلغ الجراحية خارج البلد عطف على اليسار إلى الثنية، ثم انحدر على المقابر إلى مدخل العراقيين. ويدخل إليها من ثلاثة وجوه، أبواب منى نحو العراق دربان ثم درب العمرة ثم درب اليمن بالمسفلة، الجميع مصفحة بالحديد والبلد محصن. وأبو قبيس مطل على المسجد يصعد إليه من الصفا في درج. وقد أحاط بالطواف أميال من الصفر وخشبات فيها قناديل معلقة، ويجعل فوقها الشمع لملوك مصر واليمن وغيرهم[1].

إن أكبر الأسواق يأتي من منى وهو يزدهر كل سنة في أيام الموسم (الحج)، ويجتمع فيه التجار من الشام واليمن وغيرها من المناطق جالبين معهم سلعهم ومنتجاتهم[2].

كما أن التجارات في هذا الإقليم (إقليم العرب) مفيدة جدًّا لأن بها فرضتي الدنيا وسوق منى والبحر[3]. وتنصب بها القباب ليلة عيد الفطر، ويزين السوق بين الصفا والمروة[4]. وهناك أيضًا مصدر دخل قوي يتمثل في استثمار المباني، فقد قدم العمري نبذة عما كان يجول في مكة من استثمار عقاري حين قال: «وبمني بيوت هي كالقرية؛ منها ما هو مسكون، ومنها ما هو برسم البضائع، تكرى بأجور طائلة»[5]؛ أي بنظام الأجور.

ويذكر ناصر خسرو، من خلال مشاهدته ونقله بعض المعلومات عن الأسواق بمكة المكرمة، أنه رأى من خلال زيارته لمكة في أسواقها الكثير من الفواكه، فقد رأى عنبًا جيء به من ريف الحجاز، ورأى البطيخ وكثرته في هذه البلاد، ويذكر: «أن الفواكه لا تكاد تنقطع، في هذا الواد المقدس غير ذي زرع»[6]. كما ظهرت دهشة هذا الرحالة حينما أتى مكة ورأى هذه الفواكه والمزروعات لا تكاد تنقطع من هذا البلد، فبعضها مزروع في باديتها، والبعض الآخر مجلوب من خارج هذا الإقليم. ولا زرع بها ولا حنطة إلا ما جلب إليها من سائر البلاد والتمر يأتي إليها كثيرًا مما حولها والعنب يجلب إليها من الطائف وهو بها قليل جدًّا[7].

كما أشار بعضهم للأسواق: وبين الصفا والمروة مسيل، فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن، وسواها من الفواكه، ويذكر أن الساعين بين الصفا والمروة لا يكادون يفرغون من زحمة هؤلاء الباعة، التي ليس بمكة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين، عند باب بني شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها، فهي سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية[8]. ومن أسواق الحرم سوق العطارين وهي سوق جميلة البنايات ولها عطارون[9]. ويعد هذا المسعى من أكبر أسواق مكة المكرمة، في هذا الوقت، والجزء الأكبر منه محاط بالدكاكين من الجانبين[10].

ويذكر العياشي، أنه عند زيارته لمكة المكرمة، دخل سوق منى فرأى أصناف البضائع، ذوات الأثمان، وصنوف التجارات، وتزاحم الناس على شراء هذه البضائع رجاء بركة الشراء من بركة هذا المكان، وكان التجار يرددون: من شرى شيئًا من هذا المكان، وجد فيه البركة، وهذا الموقع شريف ومحل مبارك، يأتونه الناس من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم[11].

وهناك أنواع من الأسواق بمكة المكرمة يقال لها الأسواق الشامية، في شمال الحرم وهي أشبه بالأسواق التركية، لها أسقف من خشب، وشوارعها ضيقة فتضيق بالمارين خصوصًا عند مرور الجمال، وهناك أيضًا السوق الصغير، جل ما فيه هو الغذاء كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر التي يؤتى بها من الأودية المحيطة بمكة المكرمة كوادي فاطمة شمالاً، ووادي الليمون شرقًا، ووادي العبيدية والحسينية جنوبًا، ومنها ما يؤتى به من الفاكهة من جهة الطائف، وترى في هذا السوق دكاكين كثيرة، يبيعون فيها السمك

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 37.
(2) العمري، مسالك الأبصار، ص 115.
(3) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 45.
(4) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 47.
(5) العمري، مسالك الأبصار، ص 115.
(6) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 141.
(7) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 43.
(8) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 141. وابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 85.
(9) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 140.
(10) مهر، يوميات رحلة في الحجاز، ص 73.
(11) الجاسر، مقتطفات من رحلة العياشي «ماء الموائد»، ص 67.

المقلي، وفي شرق المسجد سوق الليل؛ وهو سوق كبير مختلط فيه جميع احتياجات الحاج، وفي جميع هذه الأسواق المذكورة حركة عجيبة لا تنقطع، يجنى من ورائها أرباح طائلة[1]. فهذه الأسواق يستفيد منها البائعون؛ حيث يبيعون السلع التي يجلبونها، ويستفيد أيضًا أهل الأشغال من العبيد والحمالون والحطابون والحمارون والجمالون والسقاؤون والخدامون[2].

إن كل ما يصرفونه الحجاج في موسم الحج فقط يكفي لكي يأتي بأرباح طائلة، فهو يشتري الأدوات اللازمة للإحرام في الحج، وكذلك يشتري القوت اليومي الذي يعيشه، وكذلك السكن، وكذلك ما يشتريه من المقتنيات التي يعود بها لأهله حينما يرجع، فكل ذلك له عوائد ربحية كبيرة جدًّا، يرجع بالنفع على مكة وأهلها[3].

التجارة

وللتجارة دور بارز في مكة، فهي رائجة طوال العام، رغم أن بعض كتب الرحالة قد حددتها بأوقات معينة، وربما كان القصد من ذلك أن ازدهار التجارة وبلوغ أوجها يكون في أعلى درجاته في موسم الحج. فقيل: ولمكة موسمان ينفق فيهما كل ما جلب إليها أحدهما في أول رجب والثاني موسم الحج[4]. والثمرات تجبى إليها من كل مكان فهي أكثر البلاد منافع ونعمًا وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر[5]. «ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد، فضلا عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجواهر، والياقوت، وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب: كالمسك، والكافور، والعنبر، والعود، والعقاقير الهندية إلى غير ذلك مما يجلب من الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، والبضائع المغربية، إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط، ما لو تفرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة، ولعم جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها، فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم، فهذه بركة لا خفاء بها، (فهي بركة واضحة للقاصي والداني)، وآية من آياتها خصها الله بها»[6].

ومن الطائف أكثر فواكه مكة؛ منها الرمان والزبيب والعنب الجيد والفواكه الحسنة[7]. كما أشار البعض إلى مدينة جدة ووصفها بخزانة مكة[8]. ومن الأماكن التي تجلب التجارة لمكة مصر «والميرة تحمل إليها من مصر إلى ساحلها وهو جدة»[9].

الأسعار

امتازت مكة أثناء زيارة ابن جبير برخص أسعارها «لين أسعارها»[10]، ولولا السرو اليمنيون لكان من اتصال الجدب وغلاء السعر في جهد ومشقة[11].

العملة المتداولة في مكة

ومن النقود المتداولة في مكة الدينار[12]، والنقود الأخرى المختلفة، ولأهلها أموال صامتة وأحوال فاشية[13]، فلأهل مكة المطوقة وهي العشرية ثلثا المثقال، تؤخذ كدراهم اليمن عددًا، وتفصل العشرية حتى ربما كان بينهما دريهم، ودينار عدن قيمته سبعة دراهم، وهو ثلثا البغوي توزن ولا تعد، ودينار عمان ثلاثون غير أنه يوزن. والدراهم المستعملة في الإقليم تسمى بمكة المحمدية[14].

أنواع السلع في مكة

تعددت أنواع السلع المجلوبة لمكة، يقول ابن بطوطة: «كل طرفة تجلب لها، وثمرات كل شيء تجبى لها، ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب وما لا نظير له في الدنيا، وكذلك البطيخ المجلوب إليها، والرمان لذيذ

(1) البتنوني، الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر، ص 135.
(2) البتنوني، الرحالة الحجازية، ص 136.
(3) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص 136.
(4) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 43.
(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 97.
(6) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 97.
(7) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 40.
(8) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 40.
(9) اليعقوبي، البلدان، ص 103.
(10) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 100.
(11) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 142.
(12) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 145.
(13) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 43.
(14) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 50.

الطعم، وكل ما يتفرق من البلاد من السلع فيها اجتماعه. هذا لطف الله بسكان حرمه الأمين ومجاوري بيته العتيق»[1]. ومن السلع المجلوبة أيضًا الخشب، فعلى قلة الأشجار التي تستخدم في بناء البيوت في مكة، فإن أكثر بيوت مكة تبنى سقوفها من الأخشاب، فذكر غلام في رحلته «ورغم أن الخشب نادر جدًّا في الحجاز، فإن أهل مكة يستعملون الخشب كثيرًا في بناء بيوتهم، ويقال إن معظم الخشب يأتي من جاوة»[2]. وفواكه مكة وبقولها من الطائف[3].

وقد أبدى ابن جبير تعجبه من وفرة بعض السلع كالفواكه، ظانا أنها غير متوفرة في مكة، وأنها لا توجد إلا في الأندلس فيذكر: «وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات، فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزيّة على سائر حظوظ البلاد، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغصّ بالنعم والفواكه»[4]، فهذا دليل على نقل الفواكه والسلع، ووجدها قد اختصت بالنعم والفواكه، فوجد التين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والجوز والبطيخ والأترج والقثاء والخيار والجزر والكرنب، بالإضافة إلى جميع البقول كالباذنجان واليقطين والسلجم (اللفت) والجزر والكرنب إلى سائرها، وأكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء، لا يكاد ينقطع مع طول العام، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد، فالعجب من ذلك يطول[5].

ومن أعجب ما اختبره ابن جبير البطيخ المتوفر طوال العام، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك إياه، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاب أو بجني النحل اللباب[6]، وقد دافع ابن جبير عن عدم المبالغة في رأيه بقوله: «ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض غلو، كلا لعمرك! إنه لأكثر مما وصفت وفوق ما قلت»[7].

كما شاهد بعض الرحالة بأعينهم بعض تلك المنتجات: «رأيت بها الخيار والأترج والباذنجان، وكانت كلها طازجة، وقد أثمر بها العنب وبيع بالأسواق، وكان البطيخ كثيرًا، وكانت الفاكهة متوفرة طول الشتاء فلم تنقطع أبدا»[8].

وبها عسل أطيب من الماذي (العسل الأبيض) المضروب به المثل والمعروف بالمسعودي[9]. وأنواع اللبن بها في نهاية الطيب، وكل ما يصنع منه من السمن، فإنك لا تكاد تميزه من العسل طيبًا ولذاذة[10].

ويجلب لها تجار اليمن -يقال لهم السرو نسبة إلى جبال السراة في اليمن- الزبيب الأسود والأحمر واللوز، والحنطة وسائر الحبوب؛ مثل اللوبيا إلى ما دونها، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز، فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة، ويصلون في آلاف من العدد رجالا وجمالا موقرة بجميع ما ذكر، فيرغدون معاش أهل البلد والمجاورين فيه، يتقوتون ويدخرون، فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى[11].

وقصب السكر يجلب أيضًا من حيث تجلب البقول، ومن العجب أن هؤلاء السرو لا يبيعون كل ما يجلبونه لمكة لا بدينار ولا درهم، إنما يستبدلونه بالخرق والعباءات والشمل، وأهل مكة يعدون لهم الأمتعة من الأقنعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويبايعونهم به ويشارونهم[12]، وهذا ما عرف بمقايضة السلع في التجارة.

وقد شاهد ابن جبير وصول قوافل السرو لمكة قائلا: «فاستبشر الناس بقدومهم استبشارًا كبيرًا حتى إنهم أقاموه عوض نزول المطر»[13].

وكان جل الفواكه التي تجلب إليها من الطائف

(1) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 132.
(2) مهر، يوميات رحلة في الحجاز، ص 72.
(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 39.
(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 97.
(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 97.
(6) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 98.
(7) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 98.
(8) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 141.
(9) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 98.
(10) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 98.
(11) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 110.
(12) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 111.
(13) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 140.

ومن قرى حولها، ومسيرة الطائف على ثلاثة أيام من مكة المكرمة[1]، وهي ما يعادل في وقتنا الحاضر 88 كيلو مترًا تقريبًا، وأقرب هذه المواضع يعرف بأدم، وهو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد، ومن بطن مر على مسيرة يوم أو أقل، ومن نخلة، ومن أودية بقرب البلد كعين سليمان التي سكنها فلاحون من المغاربة أصحاب الخبرة بالفلاحة والزراعة فأحدثوا فيها البساتين والمزارع[2].

الصناعة

أشارت بعض كتب الرحلات إشارة عابرة لبعض الصناعات؛ فمن مشاهد مكة قبة بين الصفا والمروة وهي حفيلة الصنعة[3]. ومسجد الكبش بقرب العقبة التي بها آبار ومصانع وقياسر وحوانيت حسنة البناء بالحجر وخشب الساج، وهي بين جبلين يطلان عليه[4].

الحلوى

يصنع من الحلوى أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى، إنهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة، وفي الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان، يتصل منها موائد بين الصفا والمروة، وقد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية، وجليت في منصات كأنها العرائس، ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة، فتلوح كأنها الأزهر حسنًا، فتقيد الأبصار وتستزل الدرهم والدينار[5].

اللحوم

وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب «إنها أطيب لحم ضرب في الدنيا، لبركة مراعيها، فتجده هنيئا رخيصا يذوب في الفم قبل أن يلاك مضغًا، ويسرع لخفته عن المعدة انهضامًا»[6].

الرطب

ومن أغرب ما شاهده الرحالة قول بعضهم: «ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله، وأجرينا الحديث باستطابته، الرطب، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجره يجنى ويؤكل، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب، وعند انتهاء نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلا، ثم يوضع بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع»[7].

المكاييل في مكة

المكاييل في مكة، الصاع[8] والمد[9] والمكوك[10]، فالمد ربع الصاع والصاع ثلث المكوك، هذا بالحجاز وهي مختلفة، وأرطالهم بمكة المن[11]، المعروف في جميع بلاد الإسلام إلا أنهم يسمونه[12] رطلًا[13]. المستعمل منها يزن خمسة أرطال وثلثًا. وأما الصاع الذي قدره عمر بمشهد الصحابة وكان يكفر به أيمانه فهو ثمانية أرطال، إلا أن سعيد بن العاصي رده إلى خمسة وثلث، ولهم بالمراكب صاعان يعطون بأحدهما جرايات الملاحين ويتعاملون بالكبير، ورطل يثرب إلى قرح مائتا درهم، ورطل اليمن بغدادي، ولعمان المن، وبقية الإقليم بغدادي، ولهم البهار وهو ثلاثمائة رطل[14].

ولاة مكة

لم تتضح المعالم السياسية للرحالة؛ إذ نطالع أخبار قليلة ومتفرقة ومن ذلك: أن الطائف من أعمال مكة مضمومة إلى عامل الطائف[15]، وبذلك فإن والي الطائف هو والي مكة.

وقد حدد ناصر خسرو مكان إقامة والي مكة: «وعلى مسافة أربعة فراسخ شمال مكة، ناحية تسمى برقة يقيم بها أمير مكة مع جيش خاص به، وهناك ماء جار وأشجار، ومساحتها فرسخان

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 99، ومهر، يوميات رحلة في الحجاز، ص 98-99.
(2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 99.
(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 93.
(4) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 38.
(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 98.
(6) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 98.
(7) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 100.
(8) الصاع= 2.04 غرام. أبو حاقه، معجم النفائس الوسيط، ص 1406.
(9) المد= 5.10 غرام. معجم النفائس، ص 1407.
(10) المكوك= 3.06 غرام. معجم النفائس، ص 1407.
(11) المن= 773.5 غرام. معجم النفائس، ص 1407.
(12) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 46.
(13) الرطل: الرطل العراقي= 382.5 غرام الرطل الشامي= 1785 غرام الرطل= 449.28 غرام. أبو حاقه، معجم النفائس، ص 1406.
(14) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 49-50.
(15) اليعقوبي، البلدان، ص 101.

طـولا في مثلهـا عرضـا»[1].

كـما أشـار ابـن جبـير إلى عـدد مـن أسـماء ولاة مكـة، عندمـا تحـدث عـن صاحـب مكـة مكثـر بـن عيسى بـن فليتـة بـن محمـد بـن جعفـر بـن أبي هاشـم، مـن ذريـة الحسـن بـن عـلي، وأنـه كان يطلـب مـن قائـد جـدة عـلي بـن موفـق أن يثبـت أسـماء الحجـاج القادمـين في زمـام (سـجلات)[2].

وربـما كان ذلـك بهـدف إحصائهـم وإجـراء مـا يمكـن مـن ترتيبـات للسـكن والطعـام وغيرهـا ممـا يحتاج الحاج، وهـو ممـا كان معمـولا بـه في الدواويـن. وقـد وصـف ابـن جبـير زي مكثـر لابسًـا ثـوب بيـاض متقلـدًا سـيفه مختـصرا متعممًـا بعمامـة صـوف بيضـاء رقيقـة[3].

أداء العمرة

وصـف ابـن جبـير أداءه للعمـرة قائـلا: «فطفنـا طـواف القـدوم، ثـم صلينـا بالمقـام الكريـم، وتعلقنـا بأسـتار الكعبـة عنـد الملتـزم، وهـو بـين الحجـر الأسـود والبـاب، وهـو موضـع اسـتجابة للدعـاء، ودخلنـا قبـة زمـزم، وشربنـا مـن مائهـا، ثـم سـعينا بـين الصفـا والمـروة، ثـم حلقنـا وأحللنـا»[4].

وكان بعـض الرحالـة قـد أشـار إلى أماكـن الإحـرام؛ فمـن أماكـن الإحـرام للقادمـين مـن جـدة مـكان يعـرف بالقريـن، ففيـه بئـر عذبـة، وأيضًـا المغـادرون مـن الحجـاج ينزلـون ويسـيرون منـه إلى جـدة[5]، ومسـجد عائشـة وإليـه يصـل المالكيـون ومنـه يحرمون[6].

العلوم

والحـرم محـدق بحلقـات المدرسـين وأهـل العلـم. وفيـه النسـاخون والمقرئـون، وبعـض أهـل صنعـة الخياطـة[7]. وفيـه أربعـة أئمـة سـنية هـم الشـافعية والمالكية والحنفية والحنبلية[8].

ويشـار إلى بـاب إبراهيـم عليـه السـلام، وهـو زاويـة كبـيرة متسـعة، فيهـا دار المكنـاسي الفقيـه الـذي كان إمـام المالكيـة في الحـرم، وفيهـا أيضًـا غرفـة هـي خزانـة للكتـب المحبسـة عـلى المالكيـة في الحـرم[9].

والقـراءات بمكـة، عـلى حـرف ابـن كثـير، وسـمع المقـدسي بعـض صـدور القـراء بمكـة يقـول: «مـا رأينا ولا سـمعنا أن أحـدًا أم خلـف هـذا المقـام بغـير قـراءة ابـن كثـير إلا في هـذا الزمـان»[10].

الحياة الاجتماعية في مكة

وصـف أهـل مكـة بالفصاحـة «وبمكـة فصاحـة»[11]، وذمـوا بالطمـع «ولا أطمـع مـن أهـل مكـة»[12]، وفي أخـلاق أهـل مكـة جفـاء[13]. وبخصـوص أعـداد الحجـاج فقـد أدهـش الرحالـة عددهـم لكثرتهـم.. فـلا يحـصى عددهـا إلا محـصي آجالهـا وأرزاقهـا[14].

وبخصـوص بعـض عاداتهـم وتقاليدهـم، فلديهـم طقـوس ترتبـط ارتباطـا مبـاشرا بالأثـر الدينـي عـلى العـادات، فتنصـب القبـاب ليلـة الفطـر ويزيـن السـوق بـين الصفـا والمـروة، وإذا صلـوا الغـداة أقبلـن الولائـد مزينـات بيدهـن المـراوح يطفـن بالبيـت، ويرتبـون خمسـة أئمـة في التراويـح يصلـون ترويحـة ويطوفـون أسـبوعًا، والمؤذنـون يكـبرون ويهللـون، ثـم يـضرب الفرقاعيـات كـما تـضرب عنـد الصلـوات، فيتقـدم الإمـام الآخـر، يصلـون العشـاء إذا مـضى مـن الليـل الثلـث ويفرغـون إذا بقـي الثلـث، ثـم ينـادى بالسـحور عـلى أبي قبيـس، ولا يـرى أحسـن مـن زي أهـل مكـة في خروجهـم إلى الحـج في أن أحدهـم ينوبـه في ذلـك مـا ينـوب العراقـي[15].

وليـس بعـد مكـة مدينـة مـن مدائـن الحجـاز أكثـر مـن أهلهـا مـالاً ولا أحسـن منهـم حـالاً، وبهـا وال مـن ناحيـة الهاشـمي صاحـب مكـة يقبـض صدقاتهـا ولوازمهـا ومكوسـها ويحـرس عمالتهـا، ولهـا مراكـب كثـيرة تتـصرف إلى جهـات كثـيرة، وبهـا مصائـد للسـمك الكثـير، والبقـول بهـا ممكنـة، وبهـذه المدينـة فيـما يذكـر أنزلـت حـواء مـن الجنـة، وبهـا قبرهـا[16].

(1) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 150.
(2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 57.
(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 74.
(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 58.
(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 58.
(6) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 90.
(7) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 68.
(8) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 79.
(9) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 83.
(10) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 48.
(11) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 16.
(12) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 16.
(13) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 51.
(14) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 148.
(15) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 50.
(16) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 42.

اللباس

والرسوم في هذا الإقليم لبس الوزر والأزر بلا قميص إلا القليل، وبمكة يعيبون على من يتزر إنما هو إزار واحد يلتف فيه[1]. ويسكن صاحب مكة في قصر له بالجهة الغربية بموضع يعرف بالمربعة على ثلاثة أميال من مكة، وهو قصر مبني من الحجارة وتجاوره حديقة فيها نخيلات، وبها جملة شجر منقولة إليها، وليس للهاشمي صاحب مكة معسكر خيل، وإنما معسكره رجالة لا خيل لهم، وتسمى رجالته الحرابة، ولباسه البياض والعمائم البيض، ويركب الخيل، وسياسته حسنة، وحكمه عدل، وإنصافه ظاهر، وإحسانه غدق على قدر إمكانه[2].

وعامة حجاج اليمن يشبهون الهنود؛ فكل منهم يتشح بفوطة، وشعورهم متدلية، ولحاهم مظفرة، وفي وسط كل منهم حربة قطيفية كالتي يتمنطق بها الهنود، ويقال إن أصل الهنود من اليمن، وإن قتالة أصلها كتارة (الحربة) ثم عربت[3].

المهن المتوفرة في مكة

ومن المهن التي أشار إليها الرحالة الحجامون، فعندما ينزل الحاج من جبل المروة يجد سوقًا بها عشرون دكانًا متقابلة، يشغلها جميعا حجامون لحلق شعر الرأس[4].

المشاكل التي تواجه الحجاج

لعل توفير الأمان والسلامة هو أهم ما يشغل بال المسافر وأغلى ما يتمناه، سواء كان في رحلة لأداء فريضة الحج أو كان بقصد السياحة والترويح عن النفس أو رغبة في تحصيل العلم والاطلاع أو سعيا وراء تجارة أو سفارة.

وإذا كان الإنسان قادرا على احتمال شدائد الجوع والعطش والتعب، في حدود طاقته، فإن أخطار الموت بمرض أو حادث طارئ أو التعرض لهلاك مدبر على أيدي الأعداء واللصوص وقطاع الطرق.. إن هذه الأخطار متوقعة وقد تكون متربصة في كل منعطف قادم من منعطفات الطريق ومفاجآته.. كوارث الطبيعة لا يد للإنسان في ردها، إنما يخفف تأثيرها بالصبر والتسليم والدعاء، لكن الأذى الذي يسببه الأشرار من الناس يبدو أدهى وأمر.

وربما كانت المخاطر التي يتعرض لها الحاج أكثر احتمالا لأن اللصوص والأعداء، على حد سواء، يعرفون أن هذا الحاج مزود بما يكفيه من النقود لأداء الفريضة والرجوع إلى بلده وأهله. وهذا يعني أن الطمع في الحصول على ماله بالتهديد أو القتل أشد ما يكون، فالتاجر يحمل بضاعة ويرجع ببضاعة أخرى، وإذا كانت هذه البضائع تثير شهية بعض العصابات، فإن نهب المال النقدي من ذهب وفضة كان أيسر وأسرع.

لقد عانى الحجاج مجموعة من المشاكل أثناء تأديتهم للحج؛ منها ما يتعلق بطرق المواصلات البرية أو البحرية، ومنها ما يتعلق باستغلال بعض التجار ورسوم النقل، ومنها ما هو طبيعي بدوافع الأمراض وتناقل العدوى، ورغم ذلك فقد تحملوا مشقة السفر في سبيل زيارة البيت الحرام وأداء فريضة الحج.

ومن هذه المشاكل: السفر والترحال والانتقال من أفريقيا إلى مكة، ففي أعلى هذه الصحراء في ضفة البحر الملح مدينة عيذاب، وأهلها سود وشربهم من آبار، وليست بالكبيرة القطر، ولا بالآهلة العامرة بالخلق، ومنها المجاز إلى جدة، ومدينة عيذاب ينزلها عامل من قبل رئيس البجة، وعامل من قبل ملك مصر، يقتسمون جبايتها بنصفين، وعلى عامل صاحب مصر القيام بجلب الأرزاق والمعيشة إلى عيذاب، وعلى رئيس البجة القيام بحمايتها من الحبشة، والرئيس المقيم بعيذاب من قبل ملك البجة ينزل الصحارى ولا يدخل المدينة إلا فجأة، وأهل عيذاب يتجولون في كل النواحي من أرض البجة، يشترون ويبيعون، ويجلبون ما هنالك من السمن والعسل واللبن، وبالمدينة زوارق يصاد بها السمك الكثير، اللذيذ الطعم، الشهي المأكل، وبها يؤخذ المكس (الضريبة) في وقتنا هذا من حاج الإسلام القاصدين من بلاد المغرب، وهذا المكس مبلغه على كل رأس ثمانية دنانير من أي ذهب كان مسبوكًا أو مكسورًا أو مسكوكًا، ولا يعبر أحد من حاج المغرب إلى جدة إلا بأن يظهر مكسه، ومتى جوزه رباني بحر القلزم ولم يكن عنده مكس غرمه الرباني، فلذلك لا يجوز أحد من عيذاب إلى جدة حتى يظهر الرباني البراءة مما يلزمه، فإذا جاز

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 50.
(2) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 43.
(3) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 151.
(4) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 140.

المركب البحر وسهل الله عليه الوصول إلى جدة، أرسى على بعد ودخل الثقات من ناحية والي جدة فحرزوا ما هنالك من الموجودات الممكسة اللازمة، وأثبتوها في دواوينهم ثم نزلوا ونزل الناس بجملتهم، فتقتضى منهم المكوس اللازمة لهم الواجبة عليهم، فإن عثروا على رجل منهم لا مكس معه لزم حقه على الرباني الذي جوزه، وربما سجن الرجل الحاج حتى يفوته الحج، وربما قيض الله له من يفرج عنه بما لزمه من المكس، وهذا المكس يأخذه الهاشمي صاحب مكة فينفقه في أرزاق أجناده، إذ منافعه قليلة وجباياته لا تفي بلوازمه ورزق من معه[1].

وقد أشار ابن جبير بألم لما يعانيه الحجاج القادمون من أفريقيا عبر البحر الأحمر من مصاعب، فتحدث عن عوامل طبيعية كالرياح التي قد تفقد السفن وجهتها فتضل الطريق، وتقع بين أيدي سكان الجبال البجاة، فيسلكون بهم غير طريق الماء، فيهلك بعضهم عطشًا وجوعًا ويرى أن القليل ممن يسلم منهم، ويصف الناجون كأنهم «منشر من كفن» لسوء حالهم[2].

كما أشار ابن جبير إلى سوء معاملة أهل عيذاب للحجاج واستغلالهم لهم بوضعهم في سفن الجلاب، بطريقة تدل على الاستغلال التام؛ فيضعونهم فوق بعضهم (كأنهم أقفاص الدجاج)، وقد برر ابن جبير هذا الاستغلال برغبة أصحاب السفن في الحصول على المال لقاء ذلك العدد الكبير[3]، علاوة على نهب الحجاج «فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه»، وقد حلت تلك المشكلة عندما أمر صلاح الدين الأيوبي برفع ضرائب المكوس عن الحجاج، وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يأمر بتوصيلها إلى مكة[4]، وتأكيد مبرتهم وتأنيسهم ورفع أيدي الاعتداء عنهم، والإيعاز في ذلك للخدام والأتباع والأوزاع[5].

وكذلك الحال لحجاج شرق الجزيرة العربية فقيل: «وطريق عُمان في البرية إلى مكة أو غيرها صعبة جدًّا لكثرة القفار وقلة السكان، وإنما يسافرون في المراكب على البحر إلى مدينة عدن، ومن عدن يسافرون إن شاؤوا برًّا أو بحرًا، وكذلك من صحار التي من أرض عمان إلى البحرين في جهة الشمال طرق متعذرة السلوك، لتنازع العرب بها ومحاربتهم وغاراتهم بعضهم على بعض فليس لمسافر معهم أمان في نفسه ولا في شيء من ماله»[6].

ومما عانه الحجاج ارتفاع الأسعار؛ ففي أثناء زيارة ناصر خسرو لمكة قال: «وفي ذلك الوقت كان بمكة قحط، فكان الستة عشر منًّا من القمح يقدر بدينار مغربي، وقد هاجر منها كثيرون»[7].

كما أن البيئة الجافة كانت تشكل عائقا أمام السكان أحيانا، فالغالب على ضعفاء أهلها الجوع وسوء الحال، وإذا خرج أحد عن مكة في كل جهة تلقاه أودية جارية وعيون مطردة وآبار غدقة وحوائط كثيرة ومزارع متصلة[8].

ومن الصعاب التي كانت تواجه الحجاج داخل الحرم، ما روي أن سيل الماء كان يأتي على المسيل بين الصفا والمروة، ويدخل الحرم فكان في مدة مده يطاف حول الحرم سبحًا، فأمر الخليفة العباسي المهدي برفع موضع في أعلى البلد يسمى رأس الردم، فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم إلى مجراه، واستمر على باب إبراهيم إلى الموضع الذي يسمى المسفلة ويخرج عن البلد[9].

وهو ملفت للنظر.. ويظهر نوعا من الطرافة في الطواف ما روي: «وألفيت منقوشا على سارية خارج باب الصفا تقابل السارية الواحدة من اللتين أقيمتا علما لطريق النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الصفا داخل الحرم: (أمر عبدالله محمد المهدي أمير المؤمنين -أصلحه الله تعالى- بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا، لتكون الكعبة في وسط المسجد، في سنة سبع وستين ومائة) وفي أعلى السارية التي تليها منقوش أيضًا: (أمر عبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين -أصلحه الله- بصرف الوادي إلى مجراه على عهد إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وتوسعته بالرحاب التي حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعُماره).

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 41.
(2) كما أشار ابن جبير إلى أحد أنواع السفن المستخدمة في البحر الأحمر وهي الجلاب التي تستعمل المسامير في بنائها والتي قد تكون سببا في هلاك الحجاج أحيانا. ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 46-47.
(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 48.
(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 54.
(5) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 74.
(6) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 49.
(7) ناصر خسرو، سفرنامه، ص 140.
(8) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 43.
(9) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 86.

والوادي المذكور هو الوادي المنسوب لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ومجراه على باب الصفا، وكان السيل قد خالف مجراه، فكان يأتي على المسيل بين الصفا والمروة ويدخل الحرم، فكان مُدة مده بالأمطار يُطاف حول الكعبة سبحًا، فأمر المهدي -رحمه الله- برفع موضع في أعلى البلد يسمى رأس الردم، فمتى جاء السيل عرج عن ذلك الردم إلى مجراه واستمر على باب إبراهيم إلى الموضع الذي يسمى المسفلة ويخرج عن البلد، ولا يجري الماء فيه إلا عند نزول ديم المطر الكثير»[1]، وهو الوادي المذكور في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[2].

ثم عم الأمن، فقد ذكر ابن جبير: «ومن صنع الله الجميل لنا، وفضله العميم علينا، أنّا وصلنا هذه البلدة المباركة، فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهده فيها، وطال مقامه بها، يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرابة (حرس أمير البلاد) المتلصصين فيها على الحاج المختلسين ما بأيديهم والذين كانوا آفة الحرم الشريف، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة، فكفى الله شرهم إلا القليل[3].

وقد وقع أثناء رحلة ابن جبير بين سودان أهل مكة وبين الأتراك العراقيين جولة وهوشة، وقعت فيها جراحات وسلت السيوف وفوقت القسي ورميت السهام وانتهب بعض أمتعة التجار، لأن منى في تلك الأيام الثلاثة بعد يوم النحر سوق من أعظم الأسواق، يباع فيها من الجوهر النفيس إلى أدنى الخرز، فوقى الله شر تلك الفتنة بتسكينها سريعا وكمل الناس حجهم[4].

وروي: «وسمعت بعض مشايخ القيروان يقول: حج المنصور فرأى صغر المسجد الحرام وشعثه وقلة معرفتهم بحرمته، ورأى الأعرابي يطوف بالبيت على بعيره، فساءه ذلك وعزم على شراء ما حوله من الدور وزيادتها فيه، وتفخيمه وتجصيصه، فجمع أصحابها ورغبهم في الأموال الجمة فتأبوا عن بيعها وضنوا بجوار بيت الله الحرام، فاهتم لذلك ولم يجز أن يغصبها عليهم، ولم يظهر للناس ثلاثة أيام، وتحدث الناس بذلك وأبو حنيفة في تلك السنة حاج، ليس له بعد ذكر ولا ظهر الناس على فقهه، وصائب رأيه، قال: فقصد خيامه وكانت بالأبطح، فسأل عن أمير المؤمنين وما الذي غيب شخصه، فذكرت القصة، فقال: هذا باب هين لو قد لقيته عرضته عليه، فأنهي ذلك إليه، فأمر بإحضاره، فلما سأله عن ذلك قال أبو حنيفة: يحضرهم أمير المؤمنين فيسألهم أهذه الكعبة نزلت عليكم أم أنتم نزلتم عليها؟ فإن قالوا: نزلت علينا! كذبوا، لأن منها دحيت الأرض. وإن قالوا: نحن نزلنا عليها، فجوابهم أنه قد كثر زوارها وضاقت ساحتها، فهي أحق بفنائها، ففرغوه لها. فلما جمعهم وسألهم قال سفيرهم وكان رجلا هاشميًّا، نحن نزلنا عليها. قال: ردوا فناءها فقد كثر زوارها واحتاجت إليه، فبهتوا ورضوا بالبيع. وهذه الحكاية تقوي إحدى الروايتين عن أبي حنيفة كراهية بيع دور مكة وأخذ أجورها إلا على تأويل[5].

كما أشار ابن جبير إلى ما يمس الطائف من الإعياء وفتور الأعضاء، من عمرة يعتمرها على قدميه، أو من غير ذلك من الأسباب المؤدية إلى تعب البدن، وتحدث عن علاج ذلك، واصفًا تجربته مع ماء زمزم قائلا: «ومن الأمور المجربة في هذا الماء المبارك أن يصب من ذلك الماء على البدن فيجد الراحة والنشاط لحينه ويذهب عنه ما كان أصابه»[6].

ومن المضار الصحية ما قيل: أن تناول الباذنجان مضر بالصحة «والمضار بمكة باذنجان يمرض»[7]، ولعل المقصود هنا طريقة طهي الباذنجان وقليه بالزيت، ثم تركه، ثم بيعه، الأمر الذي قد يسبب تلبكًا معويًّا.

الخاتمة

عرضت هذه الدراسة لنماذج من كتب الرحالة الذين زاروا مكة وقدمت لها وصفا عينيا غاية في الدقة لما وصف به هؤلاء من أنهم بمنزلة شهود عيان (وسائل إعلام)، ولذلك أفدنا منهم كثيرًا في حقل الحياة الاقتصادية من خلال تزويدنا بأشهر السلع التجارية الصادرة والواردة وأماكن جلبها،

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 86
(2) سورة إبراهيم، الآية 37.
(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 100.
(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 157.
(5) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 38.
(6) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 101.
(7) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 51.

ورغم شدة الطقس وحرارته في مكة إلا أن كثيرا من الصعاب تم التغلب عليها بتوفير المياه سواء من العيون أو القنوات أو المناطق المجاورة.

كما أظهرت كتب الرحلات جوانب كثيرة تحدثت عن العادات والتقاليد، والزي، والمهن، والأسواق والعاملين فيها وكأنها سوق تجارية حرة.

كما أن كتب الرحلات قد سلطت الضوء على جانب معاناة الحجاج وآلية تذليل تلك الصعاب.

كما حوت كتب الرحلات وصفا معماريًّا وهندسيًّا غاية في الدقة والإتقان، وهذا البحث قد ولد بحثًا جديدا فدفعني لجعل عنوان بحث قادم عن الهندسة المعمارية لمكة عبر العصور.

المراجع

القرآن الكريم.

ابن الفقيه، أحمد بن محمد الهمذاني. 1408هـ/ 1988م. مختصر كتاب البلدان. الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي. راجعه: محمد، ممدوح حسن. 1996م. صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمّاة «تاريخ المستبصر». بدون رقم الطبعة، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر.

ابن بطوطة، محمد بن إبراهيم اللواتي. 1322هـ. رحلة ابن بطوطة المسمّاة «تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية، بيروت، لبنان.

ابن جبير، محمد بن أحمد. 1986م. رحلة ابن جبير المسمّاة «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك». الطبعة الثانية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي. 1992م. صورة الأرض. بدون رقم الطبعة، مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان.

ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله. 1884م. المسالك والممالك يليه كتاب «الخراج وصناعة الكتابة». بدون رقم الطبعة، مطبعة ليدن، هولندا.

أبو حاقه، أحمد. 1428هـ/ 2007م. معجم النفائس الوسيط. الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، لبنان.

الإدريسي، محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي الشريف. 2002م. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. بدون رقم الطبعة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر.

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد. تحقيق: ابن دهيش، عبدالملك بن عبدالله. 2003م. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. الطبعة الأولى، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة.

الإصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي. 1431هـ/ 2011م. مسالك الممالك. الطبعة الأولى، نوابغ الفكر، القاهرة، مصر.

البتنوني، محمد لبيب. 1329هـ. الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر. الطبعة الثانية، مطبعة الجمالية، بورسعيد، مصر.

البلاذري، أحمد بن يحيى. تحقيق: العظم، محمد الفردوس. 1998م. أنساب الأشراف. بدون رقم الطبعة، دار اليقظة العربية، القاهرة، مصر.

الجاسر، حمد. 1404هـ/ 1984م. مقتطفات من رحلة العياشي «ماء الموائد». الطبعة الأولى، دار الرفاعي، الرياض، المملكة العربية السعودية.

حلاق، حسان. 1996م. مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة. الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.

الحليسي، نواف بن صالح. 1414هـ/ 1993م. رحلة الشتاء والصيف «قريش ومنهجها التجاري والاقتصادي». الطبعة الأولى، مطابع التقنية للأوفست، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الحموي، ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي. تحقيق: الجندي، فريد عبدالعزيز. د.ت. معجم البلدان. بدون رقم الطبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

العمري، شهاب الدين بن فضل الله. تحقيق: أحمد زكي باشا. 1342هـ/ 1924م. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. بدون رقم الطبعة، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر.

عوض الله، السيد أحمد أبو الفضل. 1401هـ/ 1981م. مكة في عصر ما قبل الإسلام. الطبعة الثانية، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الفيروزآبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي. 1419هـ/ 1998م. القاموس المحيط. الطبعة السادسة، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الشافعي البغدادي. د.ت. الأحكام السلطانية والولايات الدينية. بدون رقم الطبعة، دار الحديث، القاهرة، مصر.

مقبل، فهمي توفيق محمد، 1429هـ/ 2008م. «أول ما خلق الله من الأرض مكة ومنها دحيت الأرض» تاريخ مكة المكرمة عبر العصور. مجلة الدرعية، المملكة العربية السعودية، السنة الحادية عشرة، العددان (42) و (43)، جمادى الآخرة/ رمضان، يونيو/ سبتمبر، ص ص 397-434.

المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي البشاري. 1877م. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. بدون رقم الطبعة، مطبعة ليدن، هولندا.

مهر، غلام رسول. ترجمة: إبراهيم، سمير عبدالحميد. يوميات رحلة في الحجاز 1348هـ/ 1930م. بدون رقم الطبعة، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، المملكة العربية السعودية.

ناصر خسرو، أبو معين الدين ناصر خسرو الحكيم القبادياني المروزي. ترجمة: الخشاب، يحيى. تصدير: عزام، عبدالوهاب. 1993م. سفرنامه. الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر. 1890م. البلدان، مطبعة بريل، ليدن، هولندا.

Makkah in the Eyes of Muslim Travelers and Geographers

Muhannad Nayef aldajah

Department of Social Studies, College of Arts
King Faisal University, Saudi Arabia

https://doi.org/10.37575/h/his/1638

ABSTRACT

This study aims to highlight the journey to Makkah and its importance in addition to showing the richness of geographical and historical vision of travelers regarding Makkah. To achieve the research objectives, the study focused on showing the most important factors that made Makkah at the center of Arab and Muslim travelers' interest in particular. Light was then shed on the most important roads leading to Makkah, including the Iraqi road, the Egyptian road, the Yemen road, and the Shami (i. e. Syrian) road in addition to other roads and sea-lanes used by people to reach Makkah from the old world countries. To fulfil the view, other geographical, historical, economical aspects (trade, industry, and commodities), social aspects (traditions, uniforms, and food), educational aspects (scientific study programs), and arechtectual arts in that city as discussed in earlier travelers' books.

The results of this work presented samples of previous travelers who visited Makkah as eyewitnesses and media reports. It also presented a detailed description of Makkah.visiual

Key Words: Al- Makdessy, Ibn Batotah, Ibn Jubair.